قصة قصيرة

مقهى العميان

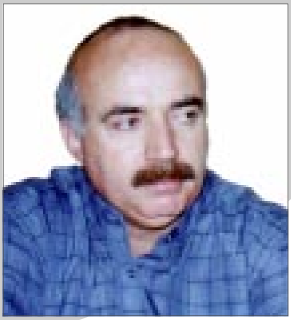

◆ للقاص أنور محمد طاهر / دهوك

ترجمة آفاق سبيريز

مقهى في وسط المدينة يقصده هؤلاء العميان صبح مساء. كيف يأتي هؤلاء العميان إلى هنا؟

حين ينظر المرءُ إلى هؤلاء العميان يقول في نفسه:

- كيف لهذا العدد الكبير من العميان أن يكون موجوداً دون أن يشعر به أحدنا؟

هذا السؤال كثير التداول بصيغ مختلفة في الطرح والإجابة.

هؤلاء العميان يتعارفون مع بعضهم عن طريق السمع، وفي إحدى الطرقات بعيداً عن المقهى، صَدَمَ أحدهم كتف الآخر فقال له: انتبه لنفسك يا هذا...

فقال الأعمى الآخر وكان قريبا: مَنْ ينتبه لنفسه أنت أم هو؟

وحين تكلم ناداه الآخر: ها إسماعيل إلى أين أنت ذاهب؟

فردَّ بفظاظة: سأذهب إلى القصر الجمهوري!! طبعاً سأذهب إلى مقهانا! وإلى أين سأذهب! وهل يحتاج الأمر استفهاماً أيها الغبي؟

اقتربا من بعضهما كتفاً لكتف، سارا معاً بعصا واحدة نحو المقهى.

قليلٌ من هؤلاء العميان كانوا يأتون مشياً على الأقدام، أكثرهم يملك سيارات فارهة، ولديهم سواق وحرس يفتحون لهم الأبواب أيضاً.

بعد صلاة المغرب يتفرقون، كلُّ اثنين أو ثلاثة يذهبون نحو جهةٍ معينة، مسجد أو ماخور أو موقف بائعات الهوى الرخيصات.

دونهم تبقى المقهى صامتة كطاحونة توقفت فجأة، اثنان أو ثلاثة فقط يبقون في المقهى، لا أحد يعرف حول ماذا يتهامسون.

هذه صورة خارجية للمقهى وهي لا تحتاج إلى معرفة كبيرة للإطلاع عليها.

نعم هذا كان الشكل الخارجي للمقهى، كمقهى عادي يرتاده بعض العميان لقضاء أوقاتهم، وقليل من الناس يعلمون أنَّ في هذه المقهى تجري كبرى الصفقات التجارية، وتبرم

العقود لبناء العمارات وبيع العقارات والدواء وحتى الخمور...الخ.

كانت البضائع وكلُّ شيء آخر يخطر ببالك أو لا يخطر، تُباع وتُشترى، وتتداولها الأيدي والحسابات وهي لا زالت تمخرُ البحار والمحيطات. ولو أنَّ شخصاً اطلَّع على هذه الصفقات عن قرب لانتصبَ شعرُ رأسه واقشعرَّ جلده من أثر الدهشة والعجب، ولانحبس لسانه إلا عن النطق باسم الجلالة: الله. ولا شيء غير ذلك.

نشرَ أحد الصحفيين الأجانب تقريراً عن هذه المقهى، وكتب بالعنوان العريض: "هي المقهى هي التي تحكم هذه المدينة" وقبل ترجمة هذا التقرير وبعد ترجمته، اعتقد الناس السطحيون بأنَّ الأمر مجرد طرفة من مفهوم المخالفة، بقصد الاستهزاء بشعبنا، وإلا فكيف يقول هذا ما لم يكن غبيا أو ساذجاً؟ والمهوسون بنظرية المؤامرة كانوا يقولون:

هذا التقرير سمٌّ قاتل، وتمَّ إعداده في مطابخ أجهزة مخابرات الدول المجاورة لتحطيم معنويات شعبنا وإلاّ فلماذا صيغَ المانشيت بهذا الأسلوب..بل هي مؤامرة أخرى ضد شعبنا كي يفقد ثقته بقيادته الحكيمة...

لماذا يبحثون الأمر بهذه الصورة؟ هؤلاء العميان الملاعين يحكموننا؟

كلاّ وألف كلاّ، ووراء الأكمة ما وراءها، وتحت هذا الغطاء يجري الإعداد لمؤامرات خطيرة وما هذه إلا البداية فحسب. وإنَّ غداً لناظره قريب.

مسح بالسبابة والإبهام حنكهُ من الأعلى إلى الأسفل وهزَّ رأسه...كلُّ هذا الكلام نطقَ به عزير عزيز، الذي قضى سنوات طويلة خلف القضبان، لميوله اليسارية، حتى لو أنَّ ذبابة طارت كان سيتهم الامبريالية والرأسمالية ويسوق مئات الحجج والبراهين. كان لديه أدواته الثابتة في القياس، يستخدمها في الأمور كافة، ويقول النظرية العلمية لا تحتمل الخطأ أو يقول:

– أوف، تعالوا اسألوا عمكم، أنا أعرف ماذا يخطط لنا أولاد الخنازير، أنا أعلم بأيِّ روثٍ يؤمنون.

يقول هذا وكأنَّه لا يعلم أو قد تناسى بأنَّ قيادات اليساريين الذين يتبعهم كل هذه السنوات لا يختلفون كثيراً...قال شابٌ مختص في علم الاقتصاد:

– عمّو... عزير ... إنَّ غرض هؤلاء الصحفيين من التقرير..أن يكشفوا حقيقة أن هؤلاء العميان ليسوا علماء اقتصاد وليست لديهم خبرات اقتصادية..ورغم ذلك فإنَّهم يديرون البلاد اقتصادياً، ومن يدير الاقتصاد تكون السياسة رهن يديه، لأنَّه في عالم اليوم الاقتصاد ورأس المال يسبقان السياسة وهذه هي النتيجة النهائية.

ورغم أن الشاب قال كلامه باحترامٍ كبير وتواضعٍ جم، ومهَّدَ لكلامه بمدح العم عزير وكيف أنَّه ذو باعٍ في السياسة وله تجارب طويلة، ردَّ عليه عزير بفظاظة وعنف ليخرس صوت الشاب لأنَّه يعلم بأنَّ رأسه لن تحتمل هذا الصداع الذي يصاحب المصطلحات الأجنبية والنظريات التي يوردها الشاب ويجهلها عزير جهلاً تاماً. ولمَّا علِمَ أنَّ زمام الأمور سيخرج من يده قال:

– اذهب بعيداً عمّو..فلا زلت صغيراً حتى أنَّك لا تميز بين عضوك والجزرة. فلا تقرأ لي الجنجلوتية وتصدع بها رأسي.

ضحك جميع الحاضرين، وخاصةً الذين كانوا يحسدون هذا الشاب، وجدوا فرصةً سانحة للنيل منه فوصلت قهقاتهم عنان السماء...

قصة مقهى العميان خرجت من الأزقة الضيقة للمدينة لتصير حديث الساعة في شاشات التلفاز وتناولتها الفضائيات، وأظهرت للعالم الخارجي أنَّها مؤسسة خطيرة تحكم هذه البلاد.

مقهى العميان لم يكن كأيٍّ مقهى على ظهر الأرض، بحيث يسمح لكلِّ من هبَّ ودبَّ بارتيادها والدخول إليها، والقليل من أبناء هذه المدينة كانوا قد رأوها من الداخل.

هذه المقهى لم تكن تشبهها مقهى أخرى، فقط بالاسم كانت مقهى، ولا تعكس أيَّ شيء آخر على أنَّها مقهى.

الكثير وصفوها بأنَّها كانت كسراديب المافيا وسجونها، وأقبية الفلاسفة، أو مقرَّات للأحزاب السياسية والمتطرفة مع اختلاف بسيط في الديكور الحديث والأنيق للمقهى.

قيل مرة لعلو بن زليخوي :1اذهب واسأل عن أحدهم.

فامتعضَ وجه علو وقال: ضعوا على ظهري كيسا من ذات الخطوط الحمراء 2واملئوه بالزبيب واصعد به قمة جبل كاره 3ولا تقولوا لي اذهب إلى مقهى الملاعين.

إذا ما استطعتَ أن تجتاز الاستعلامات الأولى بحيلةٍ ما، فإنَّ الاستعلامات الثانية لن تتمكن من اجتيازها حتى لو صرت طيراً في السماء، وخاصةً فيما لو كان أحد فحولهم هناك.

في الاستعلامات الثانية يجلس رجلٌ بعين واحدة، ولو أخذتَ تسردُ له الحجج وتباكيتَ من الصباح إلى المساء فلن يجيبك إلا ببرود وتكبر: لن تدخل. كانت لديه تعليمات صارمة من إدارة المقهى، والرجل ذو العين الواحدة يطبقها بحذافيرها.

الذين قرءوا التقرير الصحفي الأجنبي سواء المُتَرجم أم بلغته الأصلية قالوا: يا للهول هذه المقهى في مدينتنا ونحنُ لا نعلمُ عنها شيئا، فكيف لهذا الأجنبي الغريب أن يحصل على هذه المعلومات....وما هو هدفه؟ ..... ولماذا يهتم؟

قال آخرون: المعلومات الدقيقة عن هذه المقهى وتحليلات هؤلاء العميان ومقدار رؤوس أموالهم، كيف استطاعوا الحصول عليها، بالتأكيد أن هذه أسرار شخصية وتخصُّ الدولة فكيف لابن الحرام هذا أن حصلَ عليها؟

أما الذين كانت هوايتهم متابعة الصحف والتقارير من هذا النوع قالوا:

هذا هو فن الصحافة، يخرجون الضبَّ من جحره.

وآخرون غيرهم قالوا: يجب أن لا يعمل أحدٌ عملاً ما لم يكنْ متقناً له كهؤلاء، نعم لكن اليساريين والمتعصبين القوميين قالوا وأعادوا نفس الأسطوانة القديمة: هذا أمرٌ دبِّر بليل، وهذا الصحفي ذو شخصية مزدوجة وله ارتباط بأحد أجهزة المخابرات.

– طيب إلى أين يريد أن يصل؟ ربما لديه رسالة يوصلها إلى حكومته وشعبه مفادها(هؤلاء هم الذين قطعتم من أجلهم آلاف الكيلومترات لتدافعوا عنهم وتحررونهم).

السؤال الذي حيَّر الجميع "كيف حصل الصحفي على المفتاح الذي أوصله إلى هذه القضية؟ وكيف استطاع أن يقنع هؤلاء العميان بتزويده بهذه المعلومات؟" ربما ظنَّ العميان بأنَّ هذا التقرير سيعكس صورة حسنة عنهم أمام الشركات العالمية في الخارج، وفيه كذلك إشارة إلى حكومتهم عن مدى قوتهم الاقتصادية التي يجب أن يحسبوا لها ألف حساب.

وبالفعل أصابوا هدفهم كما أظهرت نتائج التقرير الصحفي الذي أحدث صدى كبيراً في الداخل والخارج صبَّ في مصلحة العميان.

ليس هذا فقط، حسب هذا التقرير، قام أحد معاهد الدراسات الاستراتيجية بإرسال وفد إلى هذه المقهى لإجراء دراسات مستفيضة، وقام الوفد بإعداد تقرير ورفعه إلى جهات مهمة وخطيرة ولم ينشروا أي شيء عنها، وإذا ما وصلت بعض العبارات إلى أحد الصحفيين، كان المعهد هو الذي يقوم بتسريبها خدمةً لأهدافهم غير المعلنة..

السؤال الذي كان يتداول بكثرة بين أهالي المدينة ودون أن يملّوا منه، وهذا السؤال كان طعاماً على موائد الفقراء والأغنياء، وكان السؤال مصدر حيرة كبيرة للجميع: "رجلٌ جاءنا من وراء البحار والمحيطات..نعم ...كيف لابن الحرام هذا أن عثر على هذه المقهى- وقبل أن يكمل سؤال

قال آخر: هذا الصحفي الفرعون لم يأت من فراغ، وهذه بديهية لا تحتاج إلى إثبات. ولكن السؤال هو من الذي يختبئ وراء هذه العقدة غير القابلة للحل؟ والأهم من كل هذا كيف أمسك بأول الخيط؟ كيف وصلَ إلى كل هذه المعلومات بينما لا يزال أكثر من نصف المدينة لا يعلمون شيئا عن هذه المقهى التي قُورِنَت بالبورصات العالمية وول ستريت.

والأدهى من كل هذا، اقتناع أهل المدينة بأنَّ غلاء الأسعار سببه هذه المقهى وهؤلاء العميان الملاعين، المساكين الذين كانوا يعانون الفاقة، كانوا يصرُّون على أسنانهم ويقولون بحنقٍ وغضب: هؤلاء العميان أعمى الله بصيرتهم هم الذين ربطوا أرزاقنا على ظهر غزال وعلينا أن نركض وراءه.

أو كانوا ليقولوا:

– هيهات.. إذا كان الاقتصاد والتجارة بيد هؤلاء..فلن يفسحوا لنا فرصةً للعمل ولو كباعةٍ متجولين..

أما المثقفون والذين كانوا قد سافروا كثيرا ورأوا بلاداً كثيرة، يقولون:

– جهَّالٌ وأميون كهؤلاء، لا يصلحون حتى للتسول وطرق الأبواب في البلدان الأخرى، وفي بلادي يصيَّرون أمراء وحكاما..

والمثقفون المفكرون الذين اطلّعوا على تاريخ الأمم والشعوب كانوا يقولون:

– كل الأمم التي مرَّت بانعطافات تاريخية وتغييرات جذرية، ظهرت لديهم طبقة من الاستغلاليين الطفيليين...وأقوالٌ أخرى..

ولكن القلة القليلة كانوا يستمعون لهؤلاء، لأنَّهم لا يقدمون حلولاً، وفي إحدى المرات قال علو بن زليخة: الحمد لله عرفتم الداء، فأين الدواء؟

هذا التقرير لم يكنْ كقنبلة انفجرت مرةً واحدة، بل كوَباء كل يوم يصيبُ أشخاصاً جدد ويعلم به آخرون..

كان هناك الكثير ممن ينظرون إلى الموضوع ببساطة ولا يجدون فيه أية مشكلة شخصية لهم، لكن الذين كانوا يهوِّلون المسألة كانوا ينظرون إلى التقرير كديناصور هبطَ إلى المدينة فجأة والحاذق من يقدر على الفرار منه..

××××

طيب إذا كانت الطبقات المتوسطة وأصحاب المشاريع الصغيرة قد اهتموا بالموضوع خوفاً على مصالحهم، فلماذا يهتمُّ هؤلاء المُعْدَمين؟ وماذا لديهم ليخسروه؟

هذه المقولة تكررت كثيرا، وكان جواب الجميع: "هيهات يا عمَّاه، ما كان قويا سَيَضْعُفْ، وما كان ضعيفاً سينكسر." هذه الأقوال كانت حديث الساعة، في الأزقة الضيقة، في المجالس والمؤسسات الحكومية والمقاهي وكلَّ مكانٍ آخر، إلى أنْ وجدت طريقها إلى الصحف والمجلات، على الرغم أنَّ هذا الموضوع كان في البداية يتسِّم بالسرية، ولا يُثار إلا همساً وبالإشارات وخلف الكواليس...لكن الأقوال والأقلام لم تكتفِ بهذه الضجة، ومثقفو السلطة عجزوا عن الدفاع وكانوا يقولون بانكسار: هذا الكلام لا يخدم أحداً...وليس في مصلحتنا..

والشيء الأهم والأدهى أن النص المترجم لهذا التقرير قد قام المترجم بحذف كل مايمس مقهى العميان بسوء قدم مصلحة العميان على مصلحة الشعب ابتعادا عن المشاكل ولكن عندما نشر النص المترجم للمرة الثانية كاملاً، وبدون حذف اثار ضجة أكبر وظلت تكبر ..وتكبر كل يوم.

في كل مجال يثار هذا السؤال :

كل هذه الاطعمة والاشربة من لحوم حمراء , الدجاج والاسماك والمعلبات والادوية والعصائر واللبان كلها نافدة غير المفعول ومضرة بالصحة ..فلماذا تقبل كل هذا؟ هل من اجل ان يزيد هؤلاء العميان من حجم قروشهم؟

آخرين كانوا يقولون:

يا لهؤلاء عديموا الضمير واخرون يتدلون :اعماهم الله لينتقموا منا علو بن زليخة رفع يديه

إلى السماء وقال :

يارب ياالله أنت الأعلم..

ويلتفت يمينا ليعتدل الذين من حوله:

طيب إذا كانت لديهم أعين يبصرون بها ..فماذا كانوا سيفعلون بها، علو بن زليخة عبس وجهه وكادت عيناه أن تقفز من حدقتيها وقال بصوت عال:

– والله لكانوا سيدفنوننا.

– والله الذي خلقنا..لكانوا سيدفنوننا أحياء .

وأيَّدَّ جميع الحاضرين موفقين علّو وقالوا: نطقتَ بالحق.

عندئذٍ انتفش علّو كالديك الرومي ودفع صدره إلى الأمام، أحد موظفي الصحة قال: كلُّ الذين يقفون في طوابير المستشفيات ويراجعون العيادات الخاصة، كلّهم بسبب الطعام والشراب الذي يستورده لنا هؤلاء العميان لنا.

وتطرّق الحديث إلى الأجهزة المنزلية والمكائن والمعدّات الثقيلة تحولّت كلُّها إلى خردوات واستوكات بعيدة عن منشئها الأصيل. هذه الأحاديث حفظناها كفاتحة الكتاب التي نقرأها في الصلوات الخمس، وحيثما ابتدأ أيُّ حديث لن ينتهي إلا عند مقهى العميان، وكشعبٍ متخلّف لا يعرف غير البكاء والعويل، بدون أن يشغلّوا عقولهم للبحث عن حلٍّ ما.

××××

وفي إحدى المرات وفي لقاء تلفزيوني، جمعَ ثلاثة من هؤلاء العميان، ليتكلموا عن الوضع الاقتصادي في البلد والخدمة التي قدّموها للارتقاء بالاقتصاد الوطني وخدمة أهالي المنطقة، وحين سأله مقدِّم البرنامج:

– ما فعلتموه حولّنا إلى مجتمع مُسْتَهْلِك، مدَّخِّنْ وكسول، لا ينتج شيئاً، فقط جيوبكم هي التي امتلأت.

أحد هؤلاء العميان، وَضَعَ نظارتيه ومسح عينيه بمنديل ورقي...عشرات المشاهدين صرخوا:

– ماذا سيفعل الله بكَ بعدَ أنْ حرمَكَ من نور عينيك.

– قال آخر: اللهم يعميك حتى في الآخرة.

– وصرخَ آخر: لو أنَّ قنبلةً أصابت هذه المقهى ولم يبقَ فيها حجراً على حجر، لاسترحنا جميعاً.

– وقال آخر متهكِّمَاً: يا لهم من رحماء، كرماء، يساعدون الفقراء، والمساكين، لكنَّهم يفتعلون مائة قضية لتملَّصوا من أية رسوم أو ضرائب.

– وقال آخر: يا ربِّ زلزلْ المقهى تحت أقدامهم، واجعل عاليَهُم سافلَهُم، وامحُ آثارهم في الأولين والآخرين.

– كلهم رددوا: آمين...آمين...آمين..

– قال أحدهم وكان يجلسُ في نهاية الديوان، وهو يهزُّ رأسه ضاحكاً، ويمطُّ شفتيه: نعم لقد أفنيتموهم!!! هيهات!!! هيهات!!!

هوامش

1– يقصد به علي بن زليخة. وفي اللغة الشعبية الدارجة يحرفون بعض الأسماء، وخاصةً إذا كانت لآل البيت والصحابة حباً بهم وإكراماً لذكراهم.

2– الكيس ذو الخط الأحمر كيس كبير يتسع لأكثر من 50 كغم وربما أكثر من طحين الوجبة والمصطلح الشعبي كان مضرب الأمثال بين الحمالين فترة الحصار.

3– أعلى قمة جبل في سلسلة الجبال المحيطة بمدينة دهوك.